الموشحات وموسيقانا الحديثة

الأستاذ حسني كنعان

ظن بعض الناس ، وإن بعض الظن إثم ، أني بما كتبته عن المعهد الموسيقي الشرقي بدمشق وعن النهضة في الموشحات ولزوم إحياء موات موسيقانا القديمة أنني انبعثت أدعو الناس إلى تعلم هذا النوع من الفن البالي على زعمهم ، والعزوف عن الحديث ولزوم مقاطعته ، ولذا أخذوا ينعتونني بالرجعي الجامد . ودفعاً للالتباس أريد في كلمتي هذه أن أضع النقط على الخطوط التي تعتلج في ضميري لإحياء قديم هذا الفن والنهوض به فأقول :

ليست الموشحات وحدها هي التي تبعث الموسيقى من رقادها وجودها ، ولا الأدوار والقصائد الموقعة على الأوزان مثل التي كان ينشدها الشيخ أبو العلاء محمد أستاذ الآنسة أم كلثوم ، ولا المنلوجات الحديثة والأغاني الدارجة التي تسمى « طقاطيق » ولا المواويل والأغاني الشعبية الطافية في هذا العصر ، وإنما الذي ينهض بالفن الجمع بين هذه العناصر جميعها ، فحفلة تقوم على نوع واحد ولون خاص من هذه الألوان والأنواع الفنية يكون مآلها الإخفاق والضجر والملل . ولا بد من التنويع ، وعدم الاكتفاء بنوع واحد ، فالآذان والأرواح تتغذى بالفن كما تتغذى الأبدان ، والاقتصار على نوع واحد من أنواع الطعام يفسد المعدة ويدفعها إلى الملل والعزوف عن الأكل . ولقد كان الأقدمون يجعلون الموشحات في المقدمة من حفلات السمر والتلهي ، ويليها الدور والقصيدة ، والأغنية « الطقطوقة » والموال ، وبهذا الترتيب والتنويع كانت تحفل الدشوة والطرب وتدوم الحفلات لديهم من مغيب الشمس حتى مطلعها دون أن يعتري السامعين السامرين المغتبطين شيء من الإملال بعكس ما هي عليه حالنا اليوم . نكتفي بعرض قطعاتنا التجارية الرخيصة المبتذلة المختنقة نقلد فيها أبطال مطربي الأفلام السينمائية ، فتارة نتغزل بالبنزين : يا أوتمبيل يا جميل يا احلاك ، وتارة بالقطار : يا وبور قل لي رايح على فين ... وتارة وتارة ... فلا ينتهي المزيع الأول من الليل على السمار حتى يأخذهم من الملل وضيق النفس التثاؤب ويرق النعاس على أجفانهم فيتركون الحفلات دون أن يتمموا المدة المخصصة لختامها .

وهذا ما دعانا إلى امتداح الموسيقى القديمة وطرق عرضها ولزوم إحياء مواتها للعيد بها ليالي السلف ، فنتذوق طعم هذا الفن كما كانوا يتذوقون ، ونطرب له كما كانوا يطربون ، فأين ليالي اليوم من ليالي أمس في عهد الحولي ، والنيلاوي ، وسلامه حجازي ، والبولاقي ، والسفطي ، وغيرهم من كبار فناننا الأقدمين ؟ وأين الأنس والطرب فيها من لياليا القاتمة ؟ فهذه تنتهي بأسرع وقت ، وتلك كانت تدوم حتى مطلع الفجر فلا يعرف السامرون اللاهون كيف كانت تمر لياليهم من شدة لهوهم وهيامهم . ولقد كانت تستغرق آه واحدة من آهات الحولي كما روى لنا المعاصرون له ساعة كاملة على التحقيق وهو يكررها بمختلف الأنغام ، وكل نغمة منها كانت تحدث في السامرين من الشجو أضعاف ما تحدثه سابقتها ، ولذا خلده أمير الشعراء ساكن الجنان بقوله فيه :

يتمنى منه أخو الشجو آها ... حين يأتي تكون من أعذاره
يسمع الليل منه في الفجر ليلا ... فيصغي مستمهلا في قراره

هكذا كانت ليالي الأقدمين ، وهكذا كان سحر فنهم . أما ليالي اليوم فإنك لا تكاد تجلس لتسمع فيها إلى صوت مغنية أو مغن ، حتى تخالك في مأتم تصغي فيه إلى أصوات النادبين والنادبات والنائحين والنائحات لفولة غناء هذا العصر وبعده عن مواطن الطرب ...

فجل الغناء العصري إن لم نقل كله من النوع الحزين الباكي الذي يقتل الشعور المشبوب والعواطف الفياضة . فإذا كنا نحن دعونا الناس فيما كتبناه إلى إحياء موات القديم فذلك لاعتقادنا أن الموشحات القديمة والأدوار تعد قواعد أساسية للفن الموسيقي كالنحو والصرف للتمكن من اللغة العربية ، فإذا قدر لمثل صاحب قطعة « بلاش تبوسني بعيني » ولمثل صاحبة قطعة « نامي يا ملاكي » الخلود فلن يخلد إلا بالقطعات التي جاريا فيها الأقدمين ، كقطعة « يا جارة الوادي » البياتية النغمة ، وتلفتت

طيبة الوادى ، من نغمة الحجاز ، وقطعة وحقك أنت المنى والطلب من نغمة السيكا ، وقطعة سلوا قلبي ، من نغمة الرصد . فهذه قطعات ذات نغمات شرقية جارى بها أصحابها الأقدمين وساروا باللحن على غرارهم ؛ فيها وبلحنها لا بغيرها تخلد أسماؤهم وهذا ما حفز الآنسة أم كلثوم على الإيعاز للحنيها أن يكثروا من تلحينهم لها القطعات ذات الأنغام العربية المعروفة المألوفة ، فجددت بهذا شباب فنها الهرم ذى اللونة الإفرنجية الدخيلة .

أما الموشحات التى مرَّ معنا ذكرها فى البحث السالف فليست كلها أندلسية ، ومعظم المتداول منها الذى يُنشد فى الحفلات ويُذاع على الناس من الموشحات التركية المستعربة ، ودليلى على ذلك أنه لا يخلو موشح فيها من قولهم فى تقاطيعه وطيانه من كلمتى « جانم وأمان ، بللى وبلالى » ولا جرم أن الموشحات الأندلسية لها قيمتها وروعة معانيها وأنغامها بالنسبة إلى التركية المتداولة المعروفة . وإليك نوعا من هذه الموشحات من النغمة الجهاركاه يُنبئك عن روعة هذا الفن القديم الأندلسى ...

كلى يا سحب تيجان الربا بالحلى ... واجعلى سوارك منعطف الجدول
يا سما ، فيك وفى الأرض نجوم وما ... كلما ، أغربت نجماً أشرقت أنجما
وهى ما ، تهطل إلا بالطلا والدما ... فاهطلى على قطوف الكرم كى تعتلى
من ظلم فى دولة الحسن إذا ما حكم ... فالسدم ، يجول فى باطنه والندم
لا أريم ، عن شرب صهباء وعن عشق ريم

فالنعيم ، عيش جديد ومدام قديم

أسفرت ليلتنا بالأنس منذ أقمرت ... بشرت بلقا المحبوب واستبشرت
طوّلى ، يا ليلة الوصل ولا تنجلى ... واسبلى ستركِ فالمحبوب فى منزلى

فأين روعة هذا الموشح الأندلسى المقتضب بتصرف من موشحاتنا اليوم . ولو استعرضنا جميع ما تقع عليه العين من الموشحات القديمة لألفيناها من هذا النوع الساحر الأخاذ ، وهذا ما حدا بنا إلى الدعوة لإحياء موانها والعناية بها . فإذا كان الحولى قد كتب له الخلود فلم يكتب له عن طريق الفن وحده ، وإنما كتب له عن طريق التجويد فى ابتكار أروع القطعات الأخاذة المسانى ، وإليك نموذجاً من أدواره فى نغمة الحجاز كار :

الله يصون دولة حسنك ... على الدوام ، من غير زوال
ويصون فؤادى من جفنك ... ماضى الحسام ، من غير قتال
أشكى لمين غيرك حبك ... أنا العليل ، وأنت الطبيب
إسمح وداوينى بقربك ... واصنع جميل ، إياك أطيب

وأنا أعرف مغنياً من هذه الطبقة سمعته فى حداثتى يدعى محمد سالم ، وكان يزيد عمره على المائة سنة ، سمعته فى حفلة سمر خاصة ، وأذكر أن أحد الحاضرين قد استخفه الطرب فقذف بنفسه فى نهر يزيد فى الربوة بعلابه من شدة ما عراه من الطرب والشجن ، وما فتئت إلى الآن أتخيله كالأخطبوط يغوص فى النهر يضرب وجهه من غير شعور كأنى أشاهده الآن .

أما البعض من مطربى هذا العصر فإنك لتهم أن تلقيهم فى النهر وتبيدهم تخلصاً منهم ، أو أن تاقى بنفسك منتحراً إذا كان ليس بمقدورك أن تلقيهم وتبيدهم فراراً مما تسمعه وتراه ...

(دمشق) حسنى كنعان

جامعة فؤاد الأول

كلية الآداب

تعلن كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول عن حاجتها لملء وظيفتى معيدين من الدرجة السادسة بقسم الجغرافيا بها ويشترط فى المرشح أن يكون حاصلاً على درجة الليسانس الممتازة من قسم الجغرافيا بكلية الآداب أو على درجة الليسانس العادية بتقدير جيد جدا على الأقل

وتقدم الطلبات فى موعد لا يتجاوز ١٥ سبتمبر سنة ١٩٤٨

باسم حضرة صاحب العزة عميد كلية الآداب . موضحاً بها المؤهلات الدراسية وجميع ما يتصل بالطالب تفصيلا ٤٧